

انا و مطرود و عبود

قصة قصيرة : يوسف عزيزي *

في الفناء الخلفي

- هل تعرفني باسمك ؟

- مطرود

- و من اي عشيرة ؟

- من بيت صلبوخ

- و انت ؟

- عبود

و قاطعني مطرود قبل ان اعرف نفسي قائلاً : " عبود شقيقي " و عندها حرك رجله المضمدة من الكاحل حتى الاصابع الشبيهة بالتابوت ، ثم تساءل :

- الى اية قبيلة تنتمي انت ؟

كنت ارغب ان اقول " لا فرق لدي " لكنني شعرت بانهم سيتصورون

بانني احاول التوصل من الاجابة ، لذلك قلت :

- بني خالد

و قد اكمل مطرود جملتي :

- من قبيلة بني تميم

لم يسألوني عن اسمي ، لا ادري هل نسوا ذلك او ان اسم القبيلة كان يكفي ؛ لكنني اعلم ان كل شخص هنا يعرف من خلال قبيلته .

كنا في الاصائل نجلس في ظل زاوية الفناء الخلفي و ننغمس في الحديث . مرة سألت مطرود :

- ما بها قدمك ؟

- مصدومة

كان يتكأ في مشيته و يجر جر جسمه الطويل النحيل بصعوبة بالغة و برجل واحدة فقط . الشمس قد خلفت تحت عينيه و وجنيته اخاديد عميقة ، لا يغطيها حتى شعر ذقنه الكثيف . بشرة وجهه التي كانت في يوم من الايام سمراء فاتحة تحولت الى لون الفحم .

و قد شاهدت هذا التفاوت عندما شمر عن ساعديه استعدادا للوضوء.

رفع اكمام " دشداشته " الى الاعلى و فتح الضمادة التي كانت على جرحه قائلا : والدي ايضا كان يعاني من مثل هذا الجرح ، الوجع يضرب في قلبي ويسهرني طول الليل. في الحقيقة اصبت بالدهشة عندما رأيت الجرح المندمل وكأنه بئر عميق بفوهة مفتوحة.

في البئر

كانت فوهة البئر مفتوحة ، و قد استعدت الحياة بعد ان سطعت اشعة الضوء من الفوهة ؛ كنت قلقا جدا. لملمت اذيالي وحدثت في الفوهة المفتوحة. كنت ارى اشباحا تمر من جوار تلك الفتحة تشبه ظلال الغيوم التائهة لكنها لم تكن غيوم و لا ظلال غيوم. لقد عرفت ذلك عندما عدت الى هذا البئر الموحش. كان الليل في هزيعة الاول و كل شئ يتجه نحو الظلام؛ جاء صوت من الاعلى قائلا بالفارسية :

- اطفئ النور

أطفأت النور لكنني كلما حاولت النوم فلم استطع. كان بئرا ننتا رطبا لا يوجد فيه قطرة ماء. شعرت بصدى ذلك الصوت و هو لا يزال يدوي في البئر " اطفئ الضوء اطفئ ... " و حتى عندما كنت اغالب نومي كنت استيقظ قجأة. و في احدي اليقظات رأيت من خلال فوهة البئر شيئا يبرق . تصورت ان كل شئ قد انتهى، فما قيمة الحياة داخل هذه الاسطوانة الخائفة؟

لماذا كل هذا العناء و العذاب ؟ أه ! ياليت لو كان والدي يعرف اين انا وفي اي حال ؟!. لا اتأمل مرور اي قافلة؛ لقد خابت آمالي من هذه الحياة ؛ لا امل لي الا مرور قافلة بالمصادفة لينظر احدا منهم في البئر ليرى يوسف و يبلغ الامر الى يعقوب.

في الفناء الخلفي

رفع كوفيته البالية الى الورا فباننت مقدمة جبهته، لم يوجد شعرا كثيرا على رأسه و اخذت صلعته تشع تحت شعاع الضوء. و

عندما انتهى من الوضوء قلت له " مطرود، وضوءك باطل "؛
كان يضمّد جرحه بقطعة من القماش . فتساءل كالمصعوق:
- ها، لماذا ؟

- لانه كان عليك ان تمسح باصابع يدك اليسرى على قدمك
اليسرى من اطراف الاصابع حتى مفصل القدم.

- ان قدمي مصدومة ؛ الم تشاهد هذا البئر المليء بالقيح و
الاوزاخ ، كيف استطيع ان امسح عليه , سأتألم و سأنتجس.

- على كل حال طريقة الوضوء غير شرعية.

تحرك قليلا من مكانه , مد رجله اليمنى جالسا . اراد ان يدخن
سيجارة ؛ بحث عن علبة تبغ فلم يجدها في جيوب "دشداشته" ؛
مرة اخرى فتش في جيوبه فلم يجدها، فبحث عنها في
جيب "سترتة" فوجدها هناك . لف سيجارة لنفسه و لف اخرى
لعبود و لم يتقدم بسيجارة لي ، ظنا منه بانني لم ادخن سيجارة "
اللف " . سحب عبود نفسا عميقا من سيجارته، كان في حالة تشبه
الانجذاب . سألني مطرود :

- هل تقصد بان وضوئي باطل ؟

هزيت رأسي تاييدا لما قلت وقبل ان اسأله "لماذا مسحت قدمك
من كفها" قال: هل تعرف زيدان بن زاير سالم؟

صمت برهة حتى اتذكر من هو زيدان هذا . نعم , زيدان الذي
كان زميلي في المدرسة و تركها و هو في الصف الخامس
الابتدائي و سافر الى الكويت .

- نعم نعم اعرفه .

- هو الذي اوصلني الى هذه الحالة . لقد ضيع علي عباداتي
لسنتين كاملتين . هو الذي يتحمل الذنوب؛ كنت قادمة من القرية
لشراء بعض حوائج البيت من سوق "الحميدية" . فعندما رأيت
هناك قلت لنفسي : هذا هو الوحيد الذي يستطيع حل مشكلتي ؛
لانني و قبل سنوات كنت قد زرتة في بيته و وجدت فيه
مجموعة من الكتب التي لا يوجد منها في قريتنا حتى كتاب
واحد . تصورت بانه يستطيع حل مشكلتي، لكنك الان بددت كل
شيء .

اتم مطرود سيجارته حتى النصف؛ شعرت و كأن نارها تحرق
يدي ، وصلت النار الى وسط اصابعه الا انه يبدو لايحس بذلك او
النار لاتؤثر على بشرته القاسية.
سألني عبود : هل ممكن ان تأم جماعتنا للصلاة ؟ فقلت له : لا ،
لانني لست مؤهلا لذلك .
ظهرت ملامح الدهشة على وجهه حيث يبدو ان جوابي قد
ازعجه .

لا ادري كيف انجذبت نحو مطرود و عبود, لربما مللت من
اصدقائي المهندسين الفرس او لان النقاوة و البساطة الريفية
مترسخة في وجودهما. انهم يختلفون مع المهندسين .
كنت اسهر الليالي مع عبود و مطرود و العب معهم العابا شعبية
محلية او انهم كانوا يلقون على مسامعي المناظرة الشعرية بين
الشاي و القهوة . فعندها كان عبود يمثل دور الشاي بينما يمثل
مطرود دور القهوة ؛ فبالنسبة لمطرود كان ذلك اسما على مسمى
لانه و ببشرته القاتمة و لحيته البيضاء القصيرة التي تشبه سبحة
الاراضي المحروقة قد رسخ هذا الدور في ذهني.كنت اتصور ان
كل من يقبل مطرود سوف يشعر بطعم المرارة اما عبود كان اكثر
شبابا لكن وجهه كان شاحبا يشبه لون الشاي الخفيف. فيقول عبود:
- انا شاي الحلو نزهة مواعيني شاهات العجم و ملوك
تجنيني

فيرد عليه مطرود بصوت مرتفع غير موزون تنعكس فيه
خشخشات صدره:

- انا بنت اليمن و ربات حاتم طي من بيت الكرم و الجود
واهل الزي

في البئر

تلك الليلة كانت مملة و طويلة ؛ مرة اخرى بقيت وحيدا لانهم
ابعدوني عن مطرود و عبود. لم استطع النوم في ذلك البئر
الملعون و الذي لا يوجد فيه الا منقذا وحيدا هو نقيب ؛ و السبب هو
الانين الذي يصدر من البئر المجاور لبئري. صوت مؤلم ينم عن
اليأس و الاحباط اخذ يجعلني استيقظ مرعوبا في كل لحظة.

- اللهم اني عبدك الذليل.

يقول ذلك و يغط بالصمت مرة اخرى ؛ الا انه ليس صمتا. كنت اظن ان جاري يتمم و يحدث نفسه ثم يعود لقراءة دعائه بخشوع و خنوع و بصوت مرتفع. ماذا بوسعك ان تفعل ؟ هناك شبح يخيم على فوهة البئر و هو يضرب قطعتي حديد بعضها بالبعض ، حيث الصوت يصم الاذان. ماذا بوسعك ان تفعل؟ مرات تقول لنفسك ليحدث ما يحدث ؛ علي ان ابقى في نفق الكابة هذا لاحافظ على ناصيتي من كل خفافيش الليل في هذه المغارة المظلمة. حالة تشبه امواج البحر الهائج تسيطر على كيانك و هي تقذفك بهذا الاتجاه او ذاك ؛ امواج ترفع الروح الى الاعلى و الاسفل، تقالبك رأسا على عقب ؛ فتشعر في كل لحظة بانك فريسة لهذه الامواج و لن تستطيع ان تصمد و تقاوم الاختناق او عليك ان تستسلم الى قبضتها الموحشة الا اذا كنت سباحا قاهرا. و يا ليت كنت في البحر و لا تكون في هذا البئر المظلم ، وحيدا بعيدا عن اسرتك لا علم لديها عنك او حتى انك لم تودع صديقك الحميمين عبود و مطرود.

نظرت الى فوهة البئر ، ثم نهضت فسمعت شخصا ينادي من فوق:

- اجلس

جلست ، لكن صبري نفذ من الجلوس. سمعت رنين الحديد مرة اخرى و عندها رأيت عقربا يتسلق جدار البئر. ليس لدي وسيلة للقضاء عليه ؛ ليس عقربا واحدا بل تحول الى عدة عقارب كلها سوداء صغيرة. خلعت جوربي و لففته على قبضة يدي و ضربت احدالعقارب بقوة. الا انني لم اصبه ، حاولت مرة اخرى ؛ الا انني اخطأته ايضا؛ العقارب تتسلق جدار البئر ذهابا و ايابا. تصورت لربما هذه العقارب تسكن في حدقة عيني و هي تخرج منها و تدب على جدران البئر. و قد انمحت تماما عندما سطعت اشعة الشمس علي.

في الفناء الخلفي

حتى اتاقلم مع الهواء النقي لابد من فترة زمنية. مطرود و عبود و عدد من العرب الذين يعتمرون الكوفيات و يلبسون الدشاديش كانوا يثرثرون ويتناولون العنب والبلح. ذهبت اليهم ؛ تناول مطرود براد الشاي الذي جاءهم من الخارج و وضعه امامه و سقاني كاسا منه. كانت جلستهم توشي و كانهم جالسين في وسط مستنقع " الهور " في الحويزة يشربون الشاي بعد اصطياد و فرة من السمك. كما و كنت ارى القلق في وجوههم عن المصير المجهول الذي ينتظرهم. لكن يبدو ان قساوة الحياة التي ظهرت اثارها على وجوههم جعلت قضية الموت و الحياة بالنسبة لهم شيئا سويا.

نزع مطرود الضمادة من جرحه القديم لكي يعرضه للهواء. كان جرحا متقيحا، داخله قرمزي اللون و على جدرانه شئ يشبه الزيد الابيض و في اعلى الجرح قيح اخضر اللون. كان الجرح يلمع و تتعكس منه اشعة قرمزية اللون و كل من كان يمر من هناك ينبهر و ينظر الى الجرح على مضض ، بل وان البعض كان يغمض عينه و يذهب. اشار عبود لمطرود كي يغطي الجرح الا انه لم يفعل.

عندما كانوا ينقلونني الى هذا المكان و انا معصوب العينين كنت اعتقد بانني لوحدي، و للحظات فقدت الاحساس باي شئ. لم اشاهد من قبل هذا العدد الكبير من الناس في هذه الباحة الصغيرة . كنت و كانني شارد الذهن ، افكر باسرتي ، الا ان المرء عندما يكون مع هذا الحشد من البشر لم يشعر بالغربة. يمكنك ان ترى انواع البشر في مثل هذه الامكنة : مهندس ، فلاح ، طالب ، عامل و .. اما الغربة فكانت في البئر فقط، اما خارجه فيستطيع المرء استنشاق الهواء.

و بينما كنت افكر بمصيري وقع نظري على جرح مطرود؛ كان الدم ينزف منه و مع ارتفاع شدة الحرارة كانت فتحته تتسع و يخرج منها قيح و دم بشكل مدهش ؛ انتابنتي حالة من التهوع و اصبت بالغثيان؛ احسست بان الجرح قد فتح فمه و ابتلعني. و من ثم لم يبقى اثرا للفتحة الضيقة. لم يسطع الضوء و لم تعد تأتي اية

اصوات حتى تلك الاصوات المزعجة لرنين الحديد، غرقت في
الدماء ولم اسمع او ابصر اي شئ ؛ كل شئ كان مظلمًا؛ ظلمة لا
نهاية لها و عندما رفع مطرود رجله ، شعرت بانهم يرفعونني
على ايديهم و يأخذونني الى مكان ما مجهول.

الزايير: هو لقب يطلق في الأحواز (الاهواز) على من زار
مراقد الائمة و هو كلقب الحاج.
الحميدية : مدينة تقع بين الأحواز (الاهواز) و الحويزة /جنوب
ايران/.

* كاتب و صحفي عربي ايراني من الأحواز (الاهواز)؛ و اساس
القصة مأخوذة من تجربة مر بها الكاتب عام 1981 بسجن
"جارشير" الأحواز (بالاهواز) .